

# الموسيقا في الأدب العربي

عرض ونقد وتحليل

- ٢ -

المؤلف: الأستاذ عبد اللطيف المغربي

وطالعتني شهور نكدية عسراء، غمرتني بضروب من الأسى، ورمتني بغربة  
أذهلتني وحشتها، فنضب من نفسي معين السرور، وتقلص عني ظل الطمانينة  
والدعة، وأصبحت ضاحيا أقاسي في عزلي آلاما نفدت إلى صميم القلب،  
فندّ عني جميل الصبر، وأعوزني حسن التأسي، فجعلت أروض النفس على  
ما يجمل، وآخذها بوصايا الحكماء، وأدب العلماء، فلا تزيدني إلا نفارا وإمعانا  
في القلق، حتى أعياني أمرها وأشفقت عليها أن تكون بسيل يدني من التلف،  
ويشرف بها على غاية الحياة.

وأراد الله اللطيف الخبير أن يأذن لي ليل هذه الغربة الساجي بالزوال، وأن  
أعود إلى المغاني التي بينها درجت آمالي وأحلامي، ونضوت فيها برد الشباب  
حميدا، ونسجت من دواعيها ذكرياتي الخوالد، فطابت النفس وقرت العين —  
وافتقدت صديقي القديم العصفور، وطفقت أتلسه في الرياض وعلى شواطئ  
الأنهار وفوق غصون الأشجار، وحول كل واد خصيب ونبات نضير، حتى  
أعياني طلبه، فتقبضت في إهابي حزينا يائسا، واعتقدت أن ذلك الصديق  
حطمته بعد فراقنا حوادث الأيام وأنا غير ملاقيه. وهنا انبسطت أمامي

صفحة مودته النقية ، وتمثلت لى أخلاقه فى أبهى مظاهر الكمال ، فبكيت ماشاء  
الله أن أبكى ، وكان أروع ما أبكاني عليه خلال سمحة ظفرت بها فى عالم الطير  
وحرمتها فى عالم الإنسان ، خلال لم تشبها عوامل المدنية فتفتك بأسمى ما فيها  
من معان روحية سامية ، وتجعل منها ما يشبه الهيكل المزخرف الخالى من  
الروح . فهذه خلال يصطنعها السواد الأعظم من الناس من وفاء وإخلاص  
وصداقة ومحبة ورحمة وتعاون وإيثار ، ثم هى تكاد تكون خلوا من معانيها ،  
وقد أفاض عليها النفاق وزخرف المدنية ما تدس به وتضيق ، وتعجب وتخدع ،  
حتى تشابهت الأمور وأضدادها ، فشقى المجتمع الإنسانى بها لأنها لا تعدو أن  
تكون ألقا سياره على ألسنة الناس لا تتصل بقلوبهم . ولقد دعا الرسل  
الكرام إلى الأخلاق الفاضلة وضرَبوا للناس أروع المثل فى التحلى بها  
وأرسل الحكماء والأدباء صيحاتهم الأخلاقية إلى الناس ، ولكن النفوس البشرية  
لا تزال أسيرة نوازعها فى الكثير من الناس ، وهى تتصور الأخلاق كما توحى  
إليها رغائبها ، فأصبح المجتمع الإنسانى يئن مما يلاقى من عدوان القوى على  
الضعيف ، والإعراض عن المحتاج ، وغلبة سلطان المادة على النزوات الروحية ،  
والتطاحن على الاستئثار بالمنافع ، حتى قلت الثقة بالصدى وأقفر القلب من  
الاعتماد عليه والاطمئنان إليه — فلا غرو أن يبكى فقد صديق الطائر ذى  
الفطرة النقية والمودة التى لم يفسدها تصنع .

وفى ليلة ألحت على فيها ذكريات هذا الصديق ، رأيت فى منامى مقصوص  
الريش متهدل الجناحين ، فوق فى روعى أنه لا يزال حيا يرزق . وأنتى سوف  
ألقاه فطامن ذلك من نفسى ، ودعوت الله أن يحقق هذا الأمل .

وفى يوم مشرق باسم طيب الأنفاس نازعتنى نفسى الميل إلى الإمام بحديقة أصيب  
فيها حظا من الهدوء والإجمام ، وما كدت أدخل إليها حتى رأيت فى طرف  
منها طائرا سقيما قد ألصق أحد جانبيه بالنبات النضير كما يبتد به من هول

ما يلاقي من وعك الحمى ، وقد بسط جناحيه حوله تهرما بهما وضعفا عن حملهما ، وحوله عدد غير قليل من الطير قد ألف بينه الحزن على ذلك الطائر المريض - الوقور المهيّب . فراغنى هذا المنظر الغريب الذى يمثل أروع آيات الوفاء عند الطير . فرغبت أن أجلس حيث انتهيت لأرى عن كشب ما أنا معجب به . وما كدت أهدأ فى مجلسى حتى رأيت الطائر المريض يسلك طريقه إلى فى ثاقل وإعياء ، فلما قرب منى وكاد يلس بالراح شمت منه مخايل صديقى العصفور وقلت عسى أن يكونه ، وهممت أن أبدأه بالتحية ولكنى تماسكت ورضت نفسى على الصبر والثبات - وماهى إلا لمحة كخطفة البرق حتى اهتز فبدأ فى صورة إنسان نحيل قد أضرب به الهزال ، وإذا هو كما قدرت صديقى العصفور ، فخيا وسلم وتجلت سمات وجهه واضحة ، فأسرعت إليه وعانقته طويلا وبكيت وبكى حتى عجب الحاضرون لشأننا ، وكان أطول منى بكاء وأرق شعورا وأصدق وفاء وهذا قدر ما بين الطير والإنسان . وجلسنا فى صمت ونمود حركة ذاهلين من هول الموقف . حتى استعاد صاحبي بعض قواه . فخفضنا فى وصف الفرقة وما أعقبت من آلام واتَّعَدْنَا أن نلتقى فى هذا المكان بعد إبلاله مما هو فيه . والتقيناه فى موعدنا فألفيته على خير ما أرجوله من صحة ونشاط فبدأنا الحوار :-

العصفور :- علمت أقوال بعض المجددين المتطرفين فى الشعر المرسل وما ينبعون على الشعر المقتنى من عيوب . فهل عندك من هذا الموضوع بقية لأحد منهم فيها جديد ؟

أنا - قد عرض لهذا البحث أحد المجددين فى كثير من الحكمة والاعتدال ولعل هذا رأى الذى سأعرضه عليك . أعدل الآراء إلى اليوم قال :-  
« لا جدال فى أن الموسيقى من أعظم محاسن الشعر واعتقادی الشخصى

أنها من ضرورات الشعر . وموسيقا الشعر العربى تكون فى : —

١ — الوزن .

٢ — القافية .

٣ — التصريع والترصيع ( وهو الإجماع ) وما إلى ذلك من الصناعة اللفظية .

٤ — انسجام مخارج الألفاظ والحروف التى ينتخبها الشاعر .

٥ — أوجه أخرى لا أعرفها .

والذى يعنيناهنا القافية ، فالتزام قافية واحدة له ميزتان : الأولى الموسيقا . والثانية إظهار المقدرة الصناعية . وإهمال القافية له ميزتان : حرية التعبير عموما أو على الأقل فى بعض مجالات القول . وثانيا السمو بالشعر عن صناعة لفظية فانية قريبة الغور . أو على الأقل تخفيف العبء عن غير المتضلعين من اللغة تضلعا لا يستلزمه النظم فى أى لغة أخرى . فأما موسيقا القافية فتكون فى الإيقاع أى أنها تشبه القرع الرتيب بعد فقرات متساوية : فقراءة البيت هى النقرة . والطرب من الإيقاع مشاهد عند الفطريين كدقات طبول الزنج فى مراقصهم وعند الحيوان . ومنشأ هذا الطرب أنه يسبب نوعا من الاستهواء أو التخدير العصبى تنغمر فيه النفس وتصبح غير واعية وعيا تاما ما أكسبتها إياه المدنية أى أنها تتراجع كثيرا أو قليلا إلى أصلها وهو نفس الإنسان الفطرى الذى كان يعيش فى الغاب .

ثم يعود فيقول « وتمناز القافية أيضا بإظهار المقدرة الصناعية ولا أعنى بهذه المقدرة التمكن من معرفة الكلمات التى تصلح لقافية بعينها لأن هذا درجة دانية فى استيعاب اللغة وإن كان فيها عنت على الكثيرين ، ولكنى أعنى اقتدار الشاعر على ذكر ما يغمره من المعنى بالاضبط مع التزام القافية . وهذا الاقتدار ليس عظيم الحظ فى الفن ، ولكنى لأرى بأسا فى اعتباره عملا فنيا

منزلة منزلة الزخارف التكميلية أو الكمالية في التماثيل، أو منزلة الإتقان الشديد لأصغر تفاصيل الرسم، وقد امتازت بهذا الإتقان الصرور الكلاسيكية، وكما يحدث للشعر يحدث للرسم فإن المدرسة الحديثة في الرسم ترمى أيضا إلى التخلص من القيود كما في الرسوم التكعيبية والرسوم التي لا يهتم فيها الفنان بإجادة التفاصيل البعيدة عن مغزى الصورة ومنطوقها.

والآن فماذا يريد أصحاب الشعر المرسل؟ يريدون حذف القافية للتخلص من القيود أو للتخفيف عن أنفسهم.

والرأى عندى أنه لا بأس من حذف القافية إذا كان الشاعر من المقدرة بحيث يعيضا عن النغم المفقود بموسيقا في أثناء البيت بله موسيقا الوزن. ويكون الحذف لسبب قى أى في مجالات من القول بعينها؛ لأن مما لا ريب فيه أن في القافية تقييدا للشاعر — لا ينكره إلا غير خبير — في بعض الشعر القصصى أو الشعر الشديد العمق الذى إذا التزمت فيه القافية خرج شديد الغموض وفيه كثير من اللبس الذى لا يمكن مجانبته وبه تفقد كثيرا من دقة المعنى.

ثم يقول «وأخيرا هل تألف الآذان الشرقية الشعر المرسل بعد تقديم عشرين أو ثلاثين ديوانا منه؟ إن هذه الألفة تستلزم أولا تغيير طبيعة اللغة العربية في أساليبها وامتلائها بالاستعارات وهذا عمل شاق ولكنه جائز الوقوع وثانيا تغيير طبيعة النفس الشرقية لأنها ألقت الاستنامة إلى النغم المستطيل الرتيب، ولأنها في قراراتها تؤثر القصيد المجاد نغما على المجاد معنى أو تؤثر الموسيقى على التفكير والتأمل» ومن هذا يظهر لصديق العصفور تقدير الكاتب الأديب للشعرين وحيروته بينهما، فهو لا يقول بإلغاء الشعر القديم دفعة، ولا بالأخذ بالشعر المرسل دفعة وإنما يجيزه في أحوال خاصة من القول كالشعر القصصى أو الشديد العمق ليتسع المجال أمام الشاعر، وقد جعل لكل من من القديم والمرسل مزاياه.

العصفور : لازلت يا صديقي أرى في هذه الدعوى غلوّاً لا مبرر له . وإذا كانت روح العصر قد عدلت بالناس في فن الرسم عن الزخرف والأمور الجمالية ، فليس من الحكمة أن يقاس الشعر على الرسم - ليعدل - عن زخرفته ، فلكل مزاياه . والشاعر القديم في العربية لا يصعب عليه أداء الأمانة للشعر القديم ورفع مكانته والانتفاع به في كل ما يريد من دواعي العصر مع الاحتفاظ بزخرفته . والشعر عندي هبة نادرة قليلة الذبوع ، وحياته الحافلة بالقوة والخصب في هذه الندره . وليس من الرأي الموفق تيسير سبيله برفع قيوده وزخارفه حتى يصبح وردا مباحا لكل قدم عاجز ، ومتفهيق سخي ، ودعي ضعيف . ألا ترى أنه مع الاحتفاظ بقيوده الثقيلة وزخرفته الكثير ، لاتزال تتهاقت عليه فئات من أشباه الشعراء والمفتونين الذي ملئوا أطباق الأرض صياحا أشبه بنقيق الضفادع ، وخرجوا إليها بهراء من القول كعبث الأطفال ونفثات الممرورين ، فأصبحنا في فوضى أدبية آذت الأذواق وأفسدت الألسنة ، وبتنا في ليل داج من الخلط الأدبي في الموضوعات والمعاني التي يزعم هؤلاء أنهم يحاكون فيها الأدب العربي فأخفقوا كل الإخفاق ، وباءوا بالإساءة إلى لغتهم أفبعد هذا يريدون التخفيف من قيود الشعر بإطلاق قافيته ليزيدوا في عدد الأدياء الثقلاء . إنا لنريد أن تزداد قيوده ويحاط بما يدفع عنه أمثال هؤلاء ليحيا فنّا له قيمته وطلوته .

أنا : لقد قلت حقا وكشفت عن حقيقة واقعة في أدبنا الحديث من كثرة المنتسبين إليه والمدعين له . وإذا كان المجددون يرون أن الكتابة قد نهضت وتحررت من كثير من قيودها الزخرفية فالشعر لا يقاس عليها لأنها أداة المجتمع ولسانه الناطق ، ولهذا تأثرت بما يدعو إليه الاقتصاد في الزمن وسرعة المبادلة في الرأي لتيسير الأعمال وقضاء المطالب المشتبكة المتفرعة ، فهذهها الذوق الحديث الداعي إلى السذاجة في مطالب الحياة وزخارفها والآخذ بما

تيسر ولطف ، فانطلقت من عقال السجع والخيال الحافل ، والتأنيق في اللفظ وجرت في سبيل الوضوح والمعنى الصحيح السامى ، وفوق هذا هي عامة وهو خاص ، وهي حاجة وهو ترف ، وليس يطلب من كل مثقف أن يكون شاعرا على حين يحسن أن يكون كاتباً ، لأن الكتابة جمال له في صناعته وليس الشعر مثلها ، والفنون عادة لا يفرض على المجموع الإلمام بها لأنها حظ الموهوبين . وما يرفع قدرها إلا هذا الخصوص الذى جعلها وقصرها على أهلها ونفى عنها كل ضعيف محروم .

عبد اللطيف المغربي